

ضوء مبرير على مأساة شهيرة

هل قتل الحاكم بأمر الله أم احتفى ؟

نظرية الرعاية السريية ومزاعمهم

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تممة

تلك هي النظريات والشروح الغريبة التي لجأ إليها الدعاة لتفسير اختفاء الحاكم وغيبته ؛ ولا ريب أن اختفاء الحاكم على هذا النحو الفجائي كان ضربة شديدة للدعاة ؛ فقد كان الحاكم ملازمهم وحاميهم ، وكان شخصه محور دعوتهم وعماد مزاعمهم ؛ فلما اختفى الحاكم انهارت الدعوة في مصر بسرعة ، وتفرق الدعاة في مختلف الأنحاء انتقاء المطاردة به ، ولكن الدعاة ألفوا في هذا الظرف ذاته مستقًى جديداً لدعوتهم ؛ فقد اختفى الحاكم ولكن إلى رجعة ؛ وليس على المؤمنين أن يعرفوا أين اختفى وكيف اختفى ؛ ولكن عليهم بالصلاة والاستغفار حتى يرضى عنهم ، ويعود إليهم عند ما تحمل الساعة ، ذلك لأنه اختفى غضباً عليهم لما أمتعوا فيه من الآثام والخطايا ، ولن يظهر إلا عند ما تصفو قلوب المؤمنين وتصفونياتهم ؛ وفي هذا الاختفاء ذاته ، دليل ساطع على ألوهيته وخارق قدرته ، وهو في السماء أو في الأرض روح بلا جسم ، يشرف على عباده ، وإنه ليراهم من حيث لا يرونه ، وهذا وقد مضى إلى اليوم على مصرع الحاكم تسعة وخمسة عشر عاماً ، ولا يزال الموحدون يؤمنون برجعته ويرقبونها ؛ ولم يقل لنا الدعاة أنى ومتى تكون هذه الرجعة من عالم الأبدية ، وكل ما هنالك أن حمزة يقول للمؤمنين في رسالته الشهيرة ، « إنه متى أطلت عليهم رحمة الله خرج ولي الله إمامهم باختياره راضياً عنهم ، حاضراً في أوساطهم . . » ، ويكرر الدعاة هذه الإشارة الغامضة إلى مثل الحاكم ورجعته في رسائلهم ، ولا سيما رسالة الغيبة التي أشرنا إليها ، فيقولون : « إن مولاً لم يخلو منه الدار وقد عدمته أبصاركم ، « إن مولاً لم يراكم من حيث لا ترونه ، « أحسنوا ظنكم بمولاً لم يكشف لكم عن أبصاركم ما قد غطاها من سوء ظنكم ، وأمثالها من الاشارات والعبارات الرمزية

كفيها ، أى مكفوفاً إلى مدى بعيد عن كثير من مسرات الحياة ومتعات المصريين ، خلقت فيهما تلك الحال وحشة وشذوذاً وزرابة على الحياة والأحياء ، ولكن المعرى كان دقيق الحس مرهف الأعصاب ضعيف البنية ، فنفض يده من الحياة ونجا بالسلامة والكرامة ، وبشار كان مفرط الجسم متنزى الحيوانية مضطرب الشهوة ، فأكب على إشباع شهواته مستهدفاً للرؤية الآخرين وتهكمهم ، وشهر عليهم سوط لسانه المقذع ، كما يشرع السبع المنهمك في تمزيق فريسته مخبلة للنبذ غيره من السباع عنها . تلك مظاهر التشاؤم ، أو فقه الإيمان بسمو الحياة والعزاء النفسى عن شوائبها ، في الأديين العربى والإنجليزى ، وفيما عدا ذلك كان أقطاب الأديين - لما يتدقق في شرايينهم وشرايين أميتهم من دفعة الحياة - متفائلين متشبتين بأهداب المثل العليا التي ترضاها لهم طبائعهم وبيئاتهم ، يغير لهم وجه الحياة حيناً فيبدو أن ذلك عابسا في آثارهم ، ثم يحنون إلى التعزى والإيمان ؛ فلتون في الإنجليزية مثلاً على فرط ما لاقى من خذلان في حياته الفردية والعامة وما حل به من فقدان البصر ، ظل وطيد الإيمان متطلباً للعزاء إلى منتهى حياته ، وكتب ملاحمه في أواخر أيامه طلباً للترفيه عن نفسه ولكى يبرر للناس أعمال الله ، والمتخني في العربية رغم ما أصاب من إخفاق متوال في مطلب حياته الاسمى ، الذى « جل أن يسمى » ، ورغم ما كابد من حسد وكيد وعداوة ، وما صب على الناس من قوارص كله ، ظل أبداً « من نفسه الكبيرة في جيش وفي كبرياء ذى سلطان » ، متدرباً متأهلاً للجلاد .

وإن يكن هناك مجال للقبالة ، فالأدب العربى لا شك أكثر اصطفاً بالتفاؤل والإيمان ، على كثرة ما به من الشكوى ؛ والأدب الإنجليزى أحفل منه بآثار التشاؤم ، ولا سيما في العصور الحديثة التي زادت الحياة فيها تعقداً ووطأة ؛ وإنما يبت ذلك التفاؤل في المجتمع والأدب العربيين أمران : صحو الجو الذى يعدل المزاج ويبعث البشر والطلاقة ، والدين الإسلامى الذى يبت الإيمان في النفوس ويحض على اجتلاء متعات الحياة التي أحل الله ، والذى هو كما تقدم القول أكثر تغلفاً في سرائر معتقيه ، وشمولاً لجوانب حياتهم من غيره من الأديان .

فهمى أبو السعود

وهم الرافضة ، أن عليا لم يمت ، ولكنه حتى غائب عن أعين الناس مستقر في السحاب ، صوته الرعد ، والبرق صوته ؛ ومنهم من يقول مثل هذا القول في ابنه محمد بن الحنفية ، وأنه مستقر في جبل رضوى من أعمال الحجاز ؛ ويقول آخرون وهم الاثنا عشرية إن هذا الامام المنتظر هو محمد بن الحسن العسكري (وهو أيضا من ولد علي) وأنه لم يمت ، ولكنه اختفى وغاب عن الأنظار ، ولا يزال مختفيا الى آخر الزمان ، ثم يخرج فيملا الأرض عدلا كما ملئت جورا (١)

فالقول باختفاء الحاكم مستمد من هذه الاسطورة القديمة ؛ وقد كانت هذه الاسطورة ، أعنى أسطورة الغيبة والرجعة ، وما يكتنفها من الرموز والغموض ، مبعث الخفاء دائما ؛ وكان هذا الخفاء ذاته مبعث الخشوع والروع في المجتمعات الساذجة المؤمنة ؛ وكان مبعثا لاكثر من دعوة بالنبوة والامامة ؛ بل كان مبعثا لدعوى الألوهية ذاتها ؛ أليس منتهى الخفاء والروع أن يغيب الحاكم على هذا النحو الى حيث لا يعلم أحد ؟ وقد رأى الدعاة أن يستغلوا هذا الخفاء في تأييد دعوتهم ، وأن يثبتوا بين المؤمنين جوا من الرهبة والخشوع لذكرى ذلك الذي اختفى ليعود حين تحين الساعة ، والذي « يرى ولا يرى »

على أن هناك نقطة غامضة في موقف الدعاة ازاء هذا الاختفاء إذا سلمنا بان الحاكم اختفى ولم يقتل ؛ ذلك هو الدور الذي يحتمل أن يكون قد أداه الدعاة في هذا الاختفاء ذاته . فهل للدعاة يد مافي هذا الاختفاء ؟ وهل دبروه أو اشتركوا في تديره ؟ ليس من المحتمل أن يكون الدعاة هم الذين أقنعوا الحاكم بان يختفى تقوية للدعوة ، وتمسكنا للزعم بألوهيته لدى الاولياء والكافة ؛ بل نستطيع أن نتساءل أيضا ، أليس من المحتمل أن يكون الدعاة قد فكروا في اغتيال الحاكم خدمة لدعوتهم ، وأنهم دبروا مؤامرة لاغتياله أو اشتركوا في تديرها واستطاعوا أن يحكموا تدير جريمتهم ، لكي يستغلوا بعد ذلك فكرة الاختفاء على النحو الذي أسلفنا ؟ هذه أسئلة قد تخطر على الذهن في مثل هذا الموطن ، خصوصا وقد كان حمزة وصحبه أهلا لكل اجترأ ، ولا تبعد فكرة الجريمة عن أولئك الذين اجترأوا على زعم الألوهية البشرية ، وسفكوا في سيلها دماء الأبرياء ؛ بيد أن هذه مسائل يحيط بها الظلام

الجوفاء . وخلاصة مزاعمهم في ذلك هو أنه متى حلت الساعة ، يقوم جند الموحدين من ناحية الصين ، ويقصدون إلى مكة في كتاب جرارة ، وفي غداة وصولهم يدو لهم الحاكم على الركن اليماني من الكعبة ، وهو يشهر يده سيفاً مذهباً ، ثم يدفعه إلى حمزة بن علي فيقتل به الكلب والخنزير وهما عندهم رمز الناطق والأساس ؛ ثم يدفع حمزة السيف إلى محمد ، الكلمة ، وهو أحد الحدود الخمسة ، وعندئذ يهدم الموحدون الكعبة ويسحقون المسلمين والنصارى في جميع أنحاء الأرض ، ويملكون العالم إلى الأبد ، ويبسطون سلطانهم على سائر الأمم ، ويفترق الناس عندئذ إلى أربع فرق . الأولى الموحدون وهم « العقال » ، أو « العقلاء » ، والثانية أهل الظاهر وهم المسلمون واليهود والثالثة أهل الباطن وهم النصارى والشيعة ، والرابعة المرتدون وهم « الجهال » (الجهلاء) ؛ ويعمد حمزة إلى أتباع كل طائفة غير الموحدين فيدمغهم في الجبين أو اليد بما يميزهم من غيرهم ، ويفرض عليهم الجزية وغيرها من فروض الذلة والطاعة ، وأما أصحابه فالعقلاء منهم يصبحون أرباب السلطة والمال والجاه في سائر أنحاء الأرض (١) والظاهر أن هذه المزاعم الأخيرة في سحق أبناء الأديان الأخرى مستمدة من أقوال حمزة ذاته في رسالته المسماة « النهاية والبلاغ في التوحيد » ، إذ يقول : « وعن قريب يظهر مولانا جل ذكره سيفه يدي ، ويهلك المارقين ويشهر المرتدين ، ويجعلهم فضيحة وشرة لعيون العالمين ؛ والذي يبقى من فضلة السيف تؤخذ منهم الجزية وهم صاغرون ، ويلبسوا الغيار وهم كارهون ، تلك هي نظرية الدعاة السريين ومزاعمهم في غيبة الحاكم وفي رجعته ، وهي نظرية في منتهى الاغراق والجرأة ؛ بيد أنه لا ريب في سخفها ؛ وقد ألقى الدعاة بعد انهيار دعوتهم في مصر ، ملاذا لهم في الشام ، فوجهوا إليها أنظارهم ، وحاولوا بشروحهم ومزاعمهم الجديدة أن يستبقوا ولاء شيعتهم وأنصارهم هنالك ، وما زالت ثمة بقية من شيعتهم الى يومنا وهم طائفة الدروز

بيد أن الدعاة لم يكونوا مبتدعين أيضا في نظريتهم الجديدة ؛ فقد رتبوا فكرة اختفاء الحاكم ورجعته على فكرة قديمة هي فكرة بعض غلاة الشيعة في المهدي المنتظر ؛ ومنذ عصر علي بن أبي طالب تبوأ هذه الاسطورة مكانها ؛ ويرغم هؤلاء الغلاة ،

(١) لحقنا هذه الشروح الأخيرة عن كتاب مخطوط عن طوائف لبنان لم يعرف مؤلفه وهو محفوظ بدار الكتب رقم ١٦ م

كادت أن تحدث فتنة حقيقية؛ ففي رجب سنة ٤٣٤ هـ (١٠٤٣ م) في أوائل عهد المستنصر، ظهر بمدينة مصر شخص يدعى «سكين»، كان يشبه الحاكم في بعض ملامحه، وادعى أنه الحاكم، وأنه بعث بعد موته وعاد من غيبته؛ والظاهر أنه كان من عصابة الدعاة السريين، وأن الدعاة أرادوا بدفعه إلى هذه المغامرة أن يحاولوا إثارة الفتنة التي خمدت، وأن يطبقوا نبوءاتهم وما بشروا به في رسائلهم من رجعة الحاكم بصورة عملية؛ فالتف حوله فل الملاحدة، من شيعة الدعاة الذين يعتقدون أو يتظاهرون بالاعتقاد في هذه الخرافة؛ وفي ظهر يوم سار سكين وأصحابه إلى القاهرة وقصدوا إلى القصر الكبير، ولما حاول الجند منعهم نادى الملاحدة بأنه الحاكم، قد عاد من غيبته، فارتاع الجند مدى لحظة ثم ارتابوا في الدعي فقبضوا عليه، وحلوا على صحبه، واشتبك الفريقان في معركة حامية ضجت لها أرجاء القصر، وقتل من الملاحدة عدد كبير وأسر الباقون، وصلب سكين وأصحابه وقتلوا بالنبال شر قتلة (١)

وكانت هذه آخر مغامرة من نوعها، ولا نسمع بعد ذلك شيئاً عن أولئك الدعاة الملاحدة أو دعوتهم بمصر. ولا نجد بعد ذلك أثراً لأسطورة غيبة الحاكم أو رجعته إلا في الشام حيث استقرت الدعوة في بعض أنحائه ورسخت حتى يومنا.

(القل ممنوع قطعاً - تم البحث) محمد عبد الله عنانه

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٧٢ وأبو الفدا ج ٢ ص ١٦٦

لجنة التأليف والترجمة والنشر

مع المتنبى

للدكتور طه حسين بك

أتمت لجنة التأليف والترجمة والنشر طبع هذا الكتاب القيم ويقع في جزأين كبيرين وثمنه ثلاثون قرشاً صاعاً عدا أجرة البريد
ويطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر ٩ شارع الكرداسي ومن المكاتب الشهيرة

المطبق، ولا يقدم التاريخ إلينا عنها أية لمحة أو ضياء، ومن المستحيل أن نعاملها بأكثر من فروض عارضة، وسيتبقى أبد الدهر على التاريخ لغزاً مغلقاً.

يبد أنه من الغريب أن تلقى هذه الفروض المغرقة سبيلها إلى دوائر البحث الحديث. فرى المستشرق فون ميللر مثلاً يأخذ بنظرية اختفاء الحاكم، ويعلق عليها بما يأتي:

«أما أن أخته قد دبرت قتله لخوفها من تنفيذ وعيده لها بالقتل، فهو حديث خرافة، والواقع أن مصيره لم يعرف قط، وعندى أنه طبقاً لكل ما نعرفه من حياته، قد رأى استحالة تحقيق مبادئه في مصر، فاعتزل الحياة واختفى في مكان ما ليقضى حياته بعيداً عن الأنظار لكي يعتقد أنصاره على الأقل أنه هو «الناطق» حقيقة (ناطق الزمان) وأنه سيعود من رمسه آخر الزمان في شخص الامام أو المهدي؛ وهذا ما لا يزال ماثلاً إلى اليوم في عقائد الدوز» (١)

أما نحن فما زلنا نرجح فكرة المؤامرة والجريمة: وسواء أكانت المؤامرة من تدبير ست الملك، أم من تدبير ابن دواس، أم كانت من تدبير الدعاة أنفسهم، وسواء أكان الذي ارتكب الجريمة هم عبيد ابن دواس، أم البدو الذين اعترضوا الحاكم ليلة اختفائه: أم آخرون لم يعرفوا: وسواء أكانت البواعث السياسية أم البواعث الدينية هي التي أملت بتدبير المؤامرة وارتكاب الجريمة، فإن ما لدينا من الروايات والقرائن على أن الحاكم قد زهق ضحية الجريمة، يرجح في نظرنا كل فرض آخر بما استعرضنا

وليس من المستحيل أيضاً، أن يكون الخاكم قد اختفى من تلقاء نفسه أو بتحريض الدعاة لبواعث أو مشاريع خيالية أو جنونية قامت في نفسه: بيد أن هذا الفرض يبدو في نظرنا من الضعف والاغراق بحيث لا نجد له موضعاً من التاريخ.

هذا والظاهر أن فكرة اختفاء الحاكم بأمر الله لبثت مدى حين تردد بين آونة وأخرى حتى أوائل عهد المستنصر بالله، أعني بعد وقوع الحادث بنحو ربع قرن، وقد أشرنا فيما تقدم إلى قصة ذلك المشعوذ الذي تسمى «بأبي العرب» وزعم حيناً أنه الحاكم ثم توارى بعد ذلك. بيد أن هنالك قصة أخرى من هذا النوع

(1) Von Muller: Der Islam I. P. 633